

مجلات في الأدب الفرنسي الحديث

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب في جامعة السربون ، دانيال مورتي ، Daniel Mornet

بفلم الأستاذ غيل هنراوى

« Le Roman Naturaliste »

اميل زولا

أصول مذهبه :

يتولد أدب زولا من ارادة قانونية ومن طبع لا يتلاءم مع هذه الارادة . أما هذا النظام فهو يعود إلى تأثير « بالزاك » فيه و« فلوير » ، وفلسفة « تين » ، والواقعيون هم الذين قالوا بأن القصة لا ينبغي أن تكون رومانتيكية ابداعية لأنها ليست وليدة خيال أو وهم ، وإنما يجب أن تكون محاكاة حقيقية للحقيقة ، ولكن زولا بما أوتي من الحصب وبما أفاد من مطالعة المتأخرين وجد أن هنالك مذهبا أجدر بالآخذ ، يجب أن تخلق القصة المبنية على الامتحان الذى يصل إلى عرفان حقائق علمية . وقد آلت بزولا مطالعته للدراسات النفسية التى نشأت في جيله كنظرية ولادة العواطف ونظرية الوراثة الطبيعية فلسفياً وفسولوجياً إلى أن يرى أن الطبايع في الرواية المدرسية إنما كانت عقداً بسيطة ، على أن كل ما في الانسان وكل ما في القصة يخضع للجلبة الطبيعية أو للطبع . وهذا الطبع إنما هو وليد الوراثة ووليد تأثير الاوساط والظروف ، فواجب القصة اذن ألا تقف بحثها على دراسة حالات نفسية ما هي إلا كلمات مصفوفة ، وإنما على حالات واقعية . فتأنيب الضمير مثلاً ما هو إلا اضطراب بسيط عضوى ، « وإنما غايته أن أكون كاتباً واقعياً وطبيعياً ، ولكن القصة الامتحانية يجب أن يكون لها هدف أبعد ، إنها ستكون درساً . فقد يجلس القصصى وتحمله ملاحظته وتأملاته إلى حالة من حالات كل يوم ، فيرى مثلاً حالة جنون التصوف أو هلاك الذئنين للكحول ، أحل بهم هذا عن مصادقة ، أم نتيجة شريعة معلومة ؟ إذا أردنا أن نعرف ذلك فلنقم أشخاصنا

وأنفسنا مقام من تخيلهم فكرنا المؤلف على الطريقة الامتحانية ، ولتأمل مجرى هذه الاشياء ، فإذا وصلنا في النهاية الى النتيجة التى أدركناها بالتأمل الاول كان لنا أن النتائج الواحدة تتبع الاسباب الواحدة ، وهكذا أوجدنا قانوناً ، وعملنا علماً !

على ان أهواء الرومانتيكيين ، لم تكن أبسط ولا أسهل من هذه البحوث العنيفة التى يشبهها زولا بحقائق علمية يختلقها رجل الأدب كما يشاء هو . لى يصل إلى النتائج التى تلائم فكرته وغايته . وأحكام زولا العلمية لم تكن أكثر جدأ من بحوثه .

وقد وضع زولا قصصه سائراً على طريقته بصبر وجلد ، لا يعرف الملل ، وقد عمل على الذهاب من المبدأ إلى النتائج ، فبعض أشخاصه تؤثر فيهم عوامل الوراثة ، وبعضهم لا يستطيعون فراراً من تأثير الاوساط والظروف ، وبهذا لم تظهر الفضيلة عنده كمثل مستقل وإنما الفضيلة تحتاج إلى الوراثة وإلى تأثير الاوساط والظروف كما هو الحال في الرذيلة التى تنشأ بهذا التأثير .

طبع المؤلف وعبريته

لقد كان طبع زولا أشد وأقوى من تعاليمه الفلسفية ، وقد كانت آثاره الأولى تفيض عاطفة ورقة . لقد كان كاتباً رومانتيكياً وهو لا يجهل ذلك في نفسه . فلقد أخذ عهداً على نفسه بأن يكون واقعياً وطبيعياً ، وطلب الى القصصى أن يكون ذا عاطفة ، تموج في صدره كل العواطف حيث لا تغنيه عاطفة التأمل والتحليل وحدها . ولقد كانت تموج في صدر زولا العواطف على اختلافها : العواطف الاجتماعية ، والعواطف النبيلة . ولقد كان جمهورياً ثم صار اجتماعياً فاشتراكياً . وله هذه الجملة المأثورة ، الجمهورية ستكون واقعية أو لن تكون ، فكان من وراء ذلك ان رأى في الاغنياء والاسياد والمثربين رجالاً لؤماً وأرواحاً قاسية وعقولاً منحلة ، ولا ينزل النبل والشرف والحقيقة الا منازل رجال الشعب والفنانين والمفكرين المؤمنين بالجمهورية الواقعية . وفي استطاعتنا أن نقاش هذه الافكار ولكنها بحملتها تصل بنا الى بعض الاتانيه والحق ، وإلى الاشفاق على البؤس والبؤساء .

ان الصورة التى صور بها - زولا - الانسانية صورة مظلمة الالوان ، تحمل في طياتها اليأس والوجوم ، تلخص هذه الصورة في أنها مجموعة مظلمة للعيوب وللعجز والرياء ، وجهود دائبة تبعث

كل كون هي حياة فيها القبيح والشنيع ، أما الجمال والفضيلة فهما صفتان نادرتان ، أو قل هما مستحيلان ، وهما بما لا يصح اتخاذه موضوعاً للقصة ، القصة تعرض الشناعة والرياء الضعيف المتمثل في مجتمع بنيت أسسه على رذائل مشهورة وأنانية متبجحة . وإنما قيمة القصة وحسنها يتوقفان على مقدار صدقها في وصف هذه الشناعة والرياء

هذه مبادئ جهد بها هؤلاء ولكنهم لم يكونوا أمناء لمبادئهم ، فقد كانت فضيلتهم زاهية مختالة ، قتلوا كبرياء وخلقوا كبرياء ، وكرروا موضوع كتلة الشحم ، تحت مظاهر متحدة الغرض ، وكل رواياتهم تعود إلى وصف فئة تتظاهر بنصر الفضيلة ، تمدح جماعة ساقطة إذا افترقت إليها ، وتعود إلى إهانتها إذا فرغت منها . ولهذا لم يبق من الواقعية ، إلا مبادئ عامة قد تتلاقى بالمذهب المثالي ، حيث تكتب القصة بأسناد وأدلة ، والروائي لا يحيا إلا في العالم الباطن ، عالم نفسه ، وإنه ليخرج منه ليلتقط من الحياة اليومية ألف مشهد ، ويتحرى في هذه المشاهد عن الغرائز والآهواء التي تمثل هذه القصة . الحياة الحقيقية ليست هي حياة صفوة مختارة ، وقد تكون هذه الحياة كاذبة مرائية ، إن الحياة في حياة المجموع ، حياة الشعب الصادقة ، والفن يكون في تصوير هذه الحياة الشعبية

جى دى هوپاسان

جمال الحياة ومذهبه الواقعي :

عاش هوپاسان للحياة ولجميع لذائذ الحياة . لقد كان قتي نورمانديا ، له مظهر يملأ العين ونفس لا تعرف الكلال . كان يهيم شغفاً بالطبيعة وجمالها وهو القائل « إني أحب السماء كعصفور ، والغابات كذئب شرس ، والصخور كوعل . أحب حباً وحشياً عميقاً قدسياً وحقيقياً - كل شيء يحيا . » ولقد كان له في فنونه حواس لا للتمتع فحسب ، بل للملاحظة ، وقد كان الصديق المقرب الوفي للكاتب « فلوير » ، إذا هم بأن يكتب قيد بانتباه ودقة لا كل ما شاهده ، بل كل ما يقدر أن يشاهده . ولقد أعطى صوراً كثيرة قوية عن مناظر السين والمارن ومقاطعة نورمانديا وعن حياة القرويين وطلاب الجامعات . وفي قصصه الأولى سخر من معاييب نفسه وعنازيمها ، وسخر من كل ما يراه كاذباً في المجتمع في الأديان والشرائع والعادات .

على الأشفاق تذهب مذهب العنف في قتال الفاقة الروحية والجسدية ؛ على أن زولا برغم ذلك كله يعتقد أن هذا النضال شريف وعظيم ، يبشر بمستقبل خير من الحاضر ويعلن أن الحياة الحرة المخصصة هي التي ستظفر وتنصر . وتراه قبل كتابة « أناجيله العاطفية » كان يعتقد بجمال الحياة ، هذا الجمال الذي هو عنوان قصة له ، إن جمال الحياة سينتصر على كل شناعة فيها ، وسيغلب على كل مناسك وشعائر لا تبعث إلا على الزهد والفرار من الحياة . وسيقهر المذاهب المسممة . الحياة وحدها ستكون جميلة لأنها ستكون صادقة مبدعة . وهكذا تجد زولا يتشائم ويطنى عليه تشاؤمه . ولكن تشاؤمه تلوح خلاله لمعات الرجاء ، وعشى فيه شعاع التفاؤل ولزولا بخيلة قوية وثابة . إن الشيء الذي يحبه حباً جماً هو مشهد الحياة . يحب الشناعة فيها والرذيلة والفساد أيضاً ، أليس هو مشهداً من مشاهدنا ؟ وإن مشهد الحياة يحمل بنفسه حيث يبدو مجموعة صور تنجلي فيها لجة الحياة ، وفي الحق لا تظهر عبقرية زولا إلا في هذه القدرة على التخيل . وإن هوجو وفلوير قد وصفا الجماعات في حركتها ، وفي عرا كها وصراعها ، ولكنه وصف ينشأ حول أبطال القصة ولا يدخل في أنفسهم . أما زولا فقد بدّل هذا النظام ، وترك الحياة المضطربة المهمة تسود جو القصة كلها . فهناك صور كبيرة تهيمن على الجماهير ، وهناك كائنات سرية عظيمة كأنها تحيا باضطراب الجماعات ، وإن عالماً ضخماً واسع الحدود ، ذا لخب وصخب ، مهم التفسير ، يفتش ويتحرى ويجد تأويل نفسه في هذا الرمز يبدو - طوراً - كصورة عنه ، وتارة كهم باطل !

وقام لزولا متمون لمدرسته ، أخذوا بمبادئه الأدبية وهجروا مبادئه الفلسفية ، فلم يشاءوا أن يجعلوا تاريخ البشرية مقيداً بتاريخ الوراثة والأدواء الكحولية ، ولم يعتقدوا بأن القصة إنما تكون تجربة فيسيولوجية اجتماعية ... فعادوا إلى المصادر التي صدر عنها زولا ، وإلى الواقعية التي اقتبسها من فلوير وكونكور ، ورأوا أن كل ما فيه اختلاق هو افتراء ، ورأوا أن كل ما في التحدث عن شيء لا حظناه ، ولو أن الحياة قدمت لنا مشاهد نادرة الوقوع فن الواجب أن نهملها لأنها افتراء ! مادة الرواية هي مادة كل يوم ، هي مادة كل شيء لا ابتداء له ولا انتهاء ، مادة كل ما يمكن وقوعه كل يوم في كل كون ، والحياة التي تمثل لنا كل يوم وفي

التي يأتون بها . وأكثرت قصصه تجرى على طريقته ، القصة الشخصية التي تدور حوادثها حول بطل هو صاحب القصة ، تجرى على طريقة الاعترافات التي تعبر عن الحياة الباطنة والتحليل الخلقى . على أن موباسان كانت جهوده بارزة في تطور المدرسة الواقعية وهو في خير قصصه تبدو واقعيته في ذوق حاد مشوب يسمو إلى فتنة الحياة الشعبية وهجو الحياة الاجتماعية هجواً لافتظاظه فيه ولا مرارة في انتقاء هذه الحقائق التي تمثل الحقيقة الأكثر ارتباطاً في الحياة . كل شيء في أسلوبه يدل على صرامة واتزان . ولا يميل « موباسان » من قول كل شيء . ولكن من قول كل ما يوحى إليه عقله بقوة وبيان . وقد تفتت الطيعة وتأسره وتأثر فيه ، ولكن القصة تخون نفسه ، وأخيراً تراه لا يتردد في التحري عن الحقيقة الانسانية التي تعكس في لحظة واحدة من هذه الحياة المتغيرة العابرة شيئاً من حقيقة النفس الخالدة للناس .

« نبلوه بحث تأثير العلم في الرواية » هليل هنراوى .

نُظَرَاتُ تَارِيخِيَّة دُسْتُورِيَّة بِقَلَمِ حَسَنِ مَحْتَاوِق

بِحِثِّ تَحْلِيلِي فِي الدِّسْتَاةِ الْحَدِيثَةِ سِتِينَ بَقِيَّةُ
السَّعُوبِ وَحِرْصَهَا عَلَى حَقُوقِهَا وَكَيْفَ تَقْلِبَتْ
عَلَى الْمَخْلِ السِّيَاسَةِ وَأَقَامَتْ سِيَادَتَهَا عَلَى أُمَمِ الدَّارِ
وَهُوَ دَرَسٌ مَمْتَعٌ فِي النُّبَرِيَّةِ الدُّسْتُورِيَّةِ يَطْرُبُ لِمَادَتِهِ
وَأَسْلُوبِهِ عَقْلٌ كُلُّ وَثَرٍ وَشَعُورُهُ
مُنْهَ ١٠ وَيَطْلُبُ مِنَ الْمَكْتَبَةِ التَّجَارِيَةِ الْكُبْرَى
وَمِنَ الْمُؤَلَّفِ بَوَسْنَةُ الرِّمُونِ ضَوَائِحُ الْقَاهِرَةِ

لقد كان ماجنا مرحا ولكن لم يطل عهد مجونه ومرحه . فقد تألم وغزا الألم جسمه ونفسه فبدل كل نظراته الواهمة في الحياة لقد كان مسرفا جادا الاسراف في التمتع بالحياة ، وقد أساء لنفسه وجسده بهذا الاسراف ، إسراف عنيف في لذته وصناعته كأنما كان طبيعة شاذة عنيفة في ميولها ، فكرت إليه الأوصاف وتناوشت جسمه العليل ، فأراد أن يقاوم سلطانها فعكف على الخمر والمورفين والمخدرات ومالبث قليلا حتى أثر ذلك في نفسه فولد فيها الاضطراب فتبدلت ألوان الحياة في وجهه ، واستحال نورها ظلمة حالكة ، وأخذت هذه الروح المرحية تشك في فرح الحياة وبدأت تحقر معانيها ، وآزره على ذلك عقول أوى إليها كان تفكيرها متجهما ، فهو يحب شوبنهاور ممن وجدوا الحياة صفحة سوداء . ومنذ ذلك الحين غدا كل شيء في عينه زهوا باطلا وجنونا وعذما : « سعداء هم أولئك الذين لا يبصرون بسأم كبير : لا شيء يتبدل ، ولا شيء يتحول ، وأن كل شيء يغمره سأم طويل . . فكرة الانسان ساكنة لا تتحرك وإنما تدور ضمن حدودها المتقاربة كذبابة في قارورة مسدودة ، وهذا الضجر الذي عراه يظهر على صور مختلفة في ثنايا مواضعه ورواياته ؛ على أنه لم يجعل من هذه الانسانية الكثيرة المحزنة صورة فتاة ، وهو اذا لم يجعل هذه الصورة بوجه صحيح فانه كان منفعما شفقة وحنانا عليها ، فهو في المواطن التي تهتز فيها الغرائز وتملك على المشاعر يصير فضائل خفية وجمالا متواريا ونزوعا عنيفا متألما نحو المثل الأعلى ، تراه يعود إلى حديث من أحاديث الحياة حيثما كان مصدره ، يسكب عليه الحنان والركة ، ويسبغ عليه الجمال ؛ على أن فوزه الأدبي والثروة التي نالها قد بدلاه وأثرا في نفسه ، فقد كان يغشى الأوساط الارستقراطية ويتمتع بما تخلقه هذه الأوساط من الفنون والمرح العنيف في الحياة ، فلم يعد يقنع بطريقته وفنه الأول في وصف الأشياء البسيطة وتصوير الحوادث القريبة . إنه نشط إلى ما تدعوه طبيعته الصافية إلى تحليل نفوس مركبة يستحوذ عليها الفلق ويهدبها الشقاء ، ومن جملة هذه الأنفس نفسه . كتب قصة « قوى كالموت ، و « قلبنا ، و « بطرس ، و « حنا ، وما هي قصص تحليلية . هو يريد فيها أن يخفي التحليل بدلا من نشره . وأشخاصا يريدون أن يخدعوا الناس عن أسرار نفوسهم بهذه الفصول والحركات